غفرتُ لَهُ ولاَ أُبَالى

يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

١٥ « مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أنِّى ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلاَ أُبَالِى ، مَا لَمْ يُشْرِك بِى شَيْئًا »(١)

الحق سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يُوجد مغفور له أو مرحوم ، فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له سبحانه ؛ لأن الزمن فى الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط .

وعلى سبيل المثال : نجد الواحد من البشر صحيحاً فى زمن ، ومريضاً فى زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضى إلا فى أصحاب الأغيار ، وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا فى أصحاب الأغيار .

وما دام الله هو الذى يُغيِّر ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيماً ، ولا يزال أيضاً غفورًا رحيماً .

والحق سبحانه يقول فى آيات كثيرة من قرآنه :

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ (النساء)

ليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها ، ولكن لِنقُلْ :

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦٢) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قال الذهبى : حفص بن عمر العدنى واهٍ.

كان الله غفوراً رحيماً ، ولا يزال غفوراً رحيمًا ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أَوْلَى يكون غفورًا رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة .

وسبحانه وتعالى مُنزَّه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ، لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تَقُلْ متى أو أين ؛ لأنهما به وُجِدا .

والحق سبحانه يأتى بالماضى ، لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شىء : إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

والحق سبحانه يقول عن ذاته العلية :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (طـه)

أعلمنا الحق سبحانه أنه تعالى غفار ، وكلمة « غفار » هذه حَمَتْ المجتمعات من شرارها ؛ لأن الشرير إذا ارتكب جريمة ثم حكم بأن الله لن يغفر له يتمادى فى إجرامه ويفقد صوابه .

لكن حينما يفتح الله له باب التوبة من الممكن أن يتوب ويرجع عن طريق الإجرام ، وبذلك يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والحق سبحانه سمَّى نفسه « الغفار » ليدل على كثرة مغفرته ، ولكن المهم أنك حين تقع فى الذنوب وتتوب إلى الله لا يكون فى نيتك العودة إلى الذنب مرة أخرى .

إنك لا تملك أن تعيش حتى تستغفر وتتوب مرة أخرى ، فقد تموت وقت ارتكاب الذنب ،كما أن التائب من الذنب وهو يُصِرُّ عليه كمستهزئ بربه

ولننتبه إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً [1] أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾ (آل عمران)

فالاستغفار ليس أن تردف [2] الذنب بقولك : أستغفر الله . لا ، إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله ، وأن لا يُصِر على فعل الذنب .

وليس معنى هذا أن لا يقع الذنب منك مرة أخرى ، إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة .

إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط أن لا يكون بنية مسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسى بعد ذلك.

إنك بهذا تكون كالمستهزىء بربك ، فضلاً على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر .

وغِفَاريته سبحانه مشروطة بالتوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء إلى الحق ، ولكن الذى يتوب ويؤمن ويعمل العمل الصالح ، هل يحتاج إلى هداية فوق ذلك؟

نقول : إن المقصود من الهداية هنا أن يستمر على هذا الطريق ، وكلما اهتدى زاده الله هدىً.

---

(١) كل خصلة قبيحة هى فاحشة سواء كانت فعلاً أو قولاً، ورجل فاحش : ذو فحش، وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصى. قال ابن الأثير : وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. (لسان العرب ـ مادة فحش).

(٢) الرِّدف : ما تبع الشىء. وكل شىء تبع شيئاً ، فهو ردفه. وإذا تتابع شىء خلف شىء فهو الترادف. وترادف الشىء : تبع بعضه بعضاً. (لسان العرب ـ مادة : ردف).

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ (محمد)

أى : أن كل مَنْ يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه ، ويزيده تقوى وحباً فى الدين ، وهذه هى دلالة المعونة ، وهى لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه ، وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها .

فالحق سبحانه يعطيهم حلاوة الهداية وهى التقوى ، كأن الحق سبحانه يقول للعبد المؤمن : ما دُمْت قد أقبلت علىَّ بالإيمان فَلَكَ حلاوة الإيمان .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) ﴾ (المائدة)

فصفة المغفرة وصفة الرحمة ، كُلٌّ فى مُطْلقها تكون لله وحده ، وهى توبة للجانى ، ورحمة للمجنى عليه .

فقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) ﴾ (المائدة)

يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم ، فإياك أن تقول : إن فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة ، لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى البشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾ (المائدة)

وهذا استفهام مُوجَّه للخلق ، ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » .

وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق.

وقد يقول إنسان: إن هناك أجزاء من الأرض مِلكاً للبشر ، ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى مِلْك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لايقدر على الاحتفاظ به ، كمِلْك البيت والأرض .

والحق تعالى يقول :

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ (المائدة)

والقارئ بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين : أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس ، ولكن هذا القول هو الوحيد في القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مُقدَّماً على العذاب .

فالحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« إن رحمتى سبقت غضبى »(١)

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مُقدّمًا على الغفران :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (المائدة)

هل السبب هو التفنن فى الأساليب ؟

---

(١) متفق عليه اخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ».

لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه ، ولننظر إلى السياق .

جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمَّنْ تاب ، فالسرقة إذن تقتضى العذاب ، والتوبة تقتضى المغفرة .

إذن : فالترتيب هنا منطقى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ(١) إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ (النساء)

هذه من أَرجْى الآيات في كتاب الله ؛ ولذلك فحينما سُئل رسول الله ﷺ : ما موجبات الإيمان ؟ أى : ما الذى يعطينا الإيمان ؟

فقال ﷺ : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة »(٢)

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »(٣)

وإن مَنْ يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية ، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً .

---

(١) افتراه : اختلقه . والفرية : الكذب . افترى الكذب يفتريه : اختلقه . (لسان العرب ـ مادة : فرى) .

(٢) عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « أبشروا وبشروا الناس ، من قال لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة ، فخرجوا يبشرون الناس فلقيهم عمر فبشروه فردهم فقال رسول الله ﷺ : مَنْ ردكم ؟ قالوا : عمر . قال : لم رددتهم يا عمر؟ قال : إذاً يتكل الناس يا رسول الله ». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١١) .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٦٥ ، ٦٩) ومسلم فى صحيحه (٢٦) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ١٧٤) .

هَبْ أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة فى نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة فى أن تكون له لا للآخر ، أى ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى .

أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ، ولكنه يظلم الناس ، فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه ، وليس على الخيانة العظمى .

إذن : ففى قانون البشر أيضاً خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذى لا يتعرض للسيادة ، لكن أى حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه .

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له ، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، فأنت تدخل حصن الأمان .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شَاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة »[1]

وأبو ذر عندما قال للنبى ﷺ فى محاورة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال :وإن زنى وإن سرق .قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق (تلاثاً) . ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبى ذر »[2].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٨٢٧) ومسلم فى صحيحه (٩٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه. ومعنى قوله « على رغم أنف أبى ذر » مأخوذ من الرَّغام وهو التراب، أى على كراهة منه. وإنما قال له ﷺ ذلك لاستبعاده العفو عن الزانى السارق المنتهك للحرمة، واستعظامه ذلك، وتصور أبى ذر بصورة الكاره المانع، و إن لم يكن ممانعاً، وكان ذلك من أبى ذر لشدة نفرته من معصية الله تعالى وأهلها.

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ؛ فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبى ذر .هل هذه أحزنت أبا ذر ؟

لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن رغم أنف أبى ذر ، وهو مسرور ، لماذا ؟

لأنها فتحت باب رحمة الحق ؛ لأنه إذا لم يكن هذا ، فما الفارق بين من اعتقدها وقالها ، وبين مَنْ لم يَقُلْها ؟

فلابد أن يكون لها تمييز ، وكل جريمة موجودة فى الإسلام ـ و الحق سبحانه قد جرَّمها ـ فهذا يعنى أنها قد تحدث .

فمثال ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا . . ﴿٣٨﴾ ﴾ (المائدة)

وهذا يعنى أنه من الجائز أن يسرق لمؤمن ، وكذلك قد يزنى فى غفلة من الغفلات.

والحق سبحانه يضع أسس الاستغفار ، من :

الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة ، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة [1] لما بينهن ، ما لم تُغْشَ الكبائر »[2]

---

(١) سمِّيت الكفارات كفارات لأنها تُكفِّر الذنوب أى : تمحوها وتسترها مثل : كفارة اليمين . وكفارة الظهار ، والقتل الخطأ، والكفارة عبارة عن الفعلة والخصلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة. (لسان العرب ـ مادة : كفر).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٢٩، ٢٥٩) ومسلم فى صحيحه (٢٣٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أى : أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة والرحمة ، وهو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ (٤٨) ﴾ (النساء)

وهذه المسألة ليست لصالحه ، إنما لصالحكم أنتم ، حتى لا تتعدد آلهة البشر فى البشر ، ويرهق الإنسان ، ويشقى من كثرة الخضوع لكل مَنْ كان قوياً عنه ، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك : لا ، اخضع لواحد فقط يكفِكَ كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يَكْفِك كل الأوجه ، وفى ذلك راحة للمؤمن[1] .

فالمسألة فى مصلحة العبد ، والله سبحانه لو غفر أن يُشرَك به لتعدد الشركاء في الأرض ، وحين تتعدد الشركاء فى الأرض يكون لكل واحد إله ، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يُعزَّنا جميعًا ، فلا سيادة لأحد ، ولا عبودية لأحد عند أحد .

فقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ .. (٤٨) ﴾ (النساء)

هذا لمصلحتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ (النساء)

روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشىٌّ ، وهو قاتل سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، أتى على النبى ﷺ فقال : يا محمد أتيتك

---

(١) ولقد أعطانا الله سبحانه مثلاً ، فقال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ (الزمر).

(رجلاً فيه شركاء) أى : عبداً مملوكاً لعدد من الشركاء

(متشاكسون) أى : متشاجرون متنازعون دائماً لشراسة طباعهم.

(ورجلاً سلماً لرجل) أى : خالصاً لرجل واحد ، لا ينازعه فيه أحد.

مستجيراً ، فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال رسول الله ﷺ :

« قد كنت أحب أن أراك على غير جـو ر ، فأما إذ أتيتنى مستـجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله »

قال : فـإنى أشركت بالله ، وقتلت النفس التى حـرم الله ، وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟

فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ (الفرقان)

فتـلاها عليه ، فـقال : أرى شـرطاً فلعلِّى لا أعـمل صالحاً ، أنـا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ (النساء)

فدعـا به فتلا عليه ، قـال : فلعلِّى ممن لا يشاء ، أنا فى جوارك حـتى أسمع كلام الله، فنزلت :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا (١) عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا (٢) مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

---

(١) أسرف : جـاوز القصد والاعتـدال فهو سرف، ويكون فى المال وفى غـيره ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ (الفرقان) أى : معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ(٥٣) ﴾ (الزمـر) أى : جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة فأكثروا الذنوب على أنفسهم. (القاموس القويم ١/ ٣١١).

(٢) قنط يقـنط : انقـطـع أمله فى الخير أو يئس منه فهو قانط . وقنوط : صيغة مبالغة، قال تعالى: =

اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر)

فقال : نعم ، الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم .

إذن : فالمسألة كلها تلطُّف من الخالق بخلقه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، وما دام الحق يقنن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتى بسيرتها عنده مرة أخرى وتُذكِّره بها .

فلو أن واحداً شهد زوراً [1] ، أو ارتكب ذنباً ، ثم استغفر الله منه وتاب ، إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك المغفرة ، فلا تجعله مذنباً عندك ؛ لأن الذى يملكها انتهت عنده المسألة .

لماذا ؟ لكى لا يذل الناس بمعصية فُعِلَتْ ، بل العكس ، إن أصحاب المعاصى الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون فى نظر بعض الناس هَيِّنين مُحقَّرين .

ولذلك نقول : إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة ، وندم على ما فعل كُتِبت له حسنة ، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها .

وهذا هو السبب فى أن الله يُبدِّل سيئاتهم حسنات ، وعندما نعلم أن ربنا يُبدِّل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم ، بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولا نجعل لهم أثراً رجعياً فى الزلة والمعصية .

فما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو

= ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (فصلت) أى : شديد اليأس معدوم الأمان.

(١) الزور : الباطل . قال تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الحج) قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : زور] « الزور : الكذب والباطل . وقيل : شهادة الباطل ».

الحى القيوم وأتوب إليه [1] . فلايجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة .

فلا يُدْخِلَنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسانٌ مذنباً ما دام قد استغفر مَنْ يملك العفو .

ومَنْ يسمع مستغفراً عليه أن يقول : عفا الله عنك ، ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعِنْه بالدعاء له .

ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ، لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان مَنْ يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو ؟

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر)

فالذين أسرفوا على أنفسهم هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحداً ، ولكنهم زَلُّوا وغووا ووقعوا في المعاصى ، فهؤلاء يُقَال عنهم : إنهم مذنبون لأنهم مؤمنون بالله ، ومعترفون بالذى أنزله.

أما المشرك فلم يعترف بالله ، ولا بما شرع وقنَّن من أحكام ، فما هو عليه لا يُسمّى ذنباً ، وإنما هو كفر وشرك .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١١٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . وصححه على شرط مسلم، وأقرّه الذهبى.

وكل معصية تكون تجاوزاً عمَّا أحلَّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة ، وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مُقَوِّمات حياتك .

فالله شرع لنا الزواج لنأتى بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالاً بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا .

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء ، فما الذى جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟

أنا أحللت لك كسب يدك ، وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفت ؟

إذن : فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف »

والحق سبحانه عندما يغفر الذنب ، ويغفر الإسراف فى الأمر نكون أهلاً للمدد[1] ، وأهلاً لتثبيت الله لنا .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء)

قد يقول واحد: ما دام الحق قد شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصى، وبعد ذلك أتوب . نقول له: إنك لم تلتفت إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ،

(١) المدد : ما مدَّهم به أو أمدهم ، والجمع : أمداد. والإمداد: أن يرسل الرجل للرجل مدداً. فالمدد : ما أمددت به قومك فى حرب أو غير ذلك من طعام أو أعوان. (لسان العرب : مادة مدد)

فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية.

وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآنى :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ .. ﴿١٧﴾﴾ (النساء)

وفِعْل السوء بجهالة[1] ، أى بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية ، بل هو يتجاهل العقوبة .

لذلك قال رسول الله ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[2]

فلو كان إيمانه صحيحاً ، ويتذكر دائماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هى الجَلْد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق سبحانه قال :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. ﴿١٧﴾﴾ (النساء)

فهناك مَنْ يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ، ويزهى بما ارتكب ، ويفخر

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣/ ٢٥٢٠) فى معنى كلمة « بجهالة »: « أى خطيئة من غير قصد. قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل » وقال (٤/ ١٧٥٨) : « كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته . قال قتادة : أجمع أصحاب النبى ﷺ على أن كل معصية فهى بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً » .

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية ، وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ، ويتساءل : لماذا فعلت ذلك ؟

الأول يبحث عن أماكن اللهو والخلاعة [١] ، ويظل يفاخر بما فعل من المعاصى ، أما الثانى فهو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن تهدأ شِرَّة[٢] الشهوة يغرق فى الندم .

والله سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلا لغرق العالم فى شرور لا نهاية لها ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب .

والرسول ﷺ حين حدَّد معنى ﴿ مِن قَرِيبٍ ... (١٧) ﴾ (النساء)

قال : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[٣] »[٤]

فالله سبحانه قد شرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، أى : ما لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد ، فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة ، فماذا يستفيد المجتمع ؟

لن يستفيد المجتمع شيئًا من مثل هذه التوبة ، لأنه تاب وقت ألا شر له ؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى .

---

(١) الخليع : مستهتر بالشرب واللهو، يقال : خُلع من الدين والحياء ، وقوم خلعاء بيِّنو الخلاعة.

(٢) الشرة : النشاط والرغبة، وشرة الشباب : حرصه ونشاطه. (لسان العرب ـ مادة : شرر).

(٣) غرغر : جد بنفسه عند الموت. والغرغرة : تردد الروح فى الحلق ، وهى لحظات الموت الأخيرة التى قال عنها رب العزة : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ (الواقعة).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢، ١٥٣) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٣) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنه وقال : « هذا حديث حسن غريب ».

والحق سبحانه يُذَيِّلُ الآية بقوله:

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء)

أى : عليماً بالتقنينات ، فشرّع التوبة لعلمه جَلَّ شأنه بأنه لو لم يُشرّع التوبة لكان المذنب لمرة واحدة سببًا فى شقاء العالم ، لأنه حينئذ يكون يائساً من رحمة الله.

إذن : فرحمةً منه سبحانه بالعالم شرَّع الله التوبة ، وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة .

إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضًا ؛ لذلك بيَّن الحق سبحانه أن مَنْ وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألاَّ يقع فى ذنب جديد .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٣﴾ ﴾ (هود)

هكذا يُبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التى وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب ـ إذن ـ من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه ، هذا هو مطلوب الله من العاصى ؛ لأن « دَرْء [1] المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ».

وحين يُعجِّل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنبًا قد وقع وتحقق منه وعليه ألاَّ يؤجل التوبة إلى زمن قادم ، لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق.

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذى مضى من الذنوب ، فعليه ألاَّ يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنُّب المعاصى .

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر من ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه يجيب لطالب المغفرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (هود)

ويقول رب العزة فى الحديث القدسى :

« يا بن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنَان[2] السماء ، ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أبالى .

---

(١) الدرء : الدفع . درأه : دفعه وكل مَنْ دفعته عنك فقد درأته. وفى الحديث : « ادرءوا الحدود بالشبهات »، أى : ادفعوا. (لسان العرب ـ مادة : درأ) بتصرف .

(٢) عَنَّ الشيء : ظهر أمامك، وعَنَّ :اعترض وعرض. والعَانُّ من السحاب : الذى يعترض فى الأفق. والعنان: السحاب. وقيل: عنان السماء، ما عَنَّ لك منها إذا نظرت إليها، أى ما بدا لك منها.

يا بن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب[1] الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة »[2].

***

(١) قِرَاب الشيء وقرابه : ماقارب قدره. وفى الحديث: « إن لقيتنى بقراب الأرض خطيئة » أى : بما يقارب ملأها (لسان العرب ـ مادة : قرب).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٤٠) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) من حديث أبى ذر.

obeikan.com